

يوم دارة جُلجل

كان الفتى الراكب أجمل الفتیان، وكانت فرسه العربية الكريمة أجود الجياد. كان الفتى فى ميعة الشباب، خلعت عليه سن العشرين رونقها، وهو يهتز للنسيم البليل، فى صباح يوم صاف من أيام الشتاء، فى واد ضيق من وديان نجد ببلاد العرب. وسار وراءه كلب طويل الجسم، ضامر الحشا، تظهر عليه الشراسة والضراوة، وهو يتطلع بين حين وآخر نحو سيده، كأنه ينتظر إشارته.

كان الفتى سمهريّ القوام، له ذلك اللون الأسمر الخمرى الذى تخلعه الصحراء على بنيها، وتجرى فى وجناته دماء الشباب القوى، تكاد تبض من تحت بشرته الرقيقة، وكانت عيناه سوداوين واسعتين، يبرق سوادهما الفاحم فى وسط بياضهما الناصع، ثم تطرفان بأهداب طويلة تلمس أطرافها حاجبين دقيقين مقرونين. وكان الفتى فى ركوبه يرفع رأسه فى شىء من الميل، فيبدي جانب أنفه الأقرنى رقيقاً كأنه حد السيف البدوى، ويقلب نظره باسمًا فى أثناء سيره بالوادي فيتأمل عراره وخزماه، ويهتز لاختضار عشبه وابتلال أغصانه، فيتمايل على ظهر فرسه كأنه يجيب ألحان الحياة الخفية التى ينبض بها شبابه.

بلغ به السير بعد قليل إلى دارة جُلْجُل، وهي قطعة من الوادى ذات صخور ملساء، بها وهدة فسيحة اجتمع بها ماء المطر الصافى المتلألئ، يجعد وجهه مرور النسيم، ويرقص عليه شعاع الضياء، فنزل خفيفاً عن فرسه، وألقى زمامها على غاربها، ومسح بيده على جبينها الواسع، فجعلت الفرس تشم كتفيه وصدره متوددة، وتضرب الأرض بحافرها كأنها تأبى على صاحبها أن يقف بها عند مثل هذا المكان القريب.

ووقف الكلب إلى ناحية كأنه غيران من تدليل سيده لفرسه، وأقعى يلهث فى انتظار استئناف السير.

وذهب الشاب إلى الحوض فملاً منه إداوته، ثم مال إليه فاحتسى منه لنفسه حفنتين ارتوى بهما، ثم رفع رأسه فملاً صدره من الهواء الصافى وتبسم بسمه هادئة تنم عما كان يجيش فى نفسه من الارتياح إلى الحياة والتنعم بها.

وذهب إلى فرسه فعلق الإداوة فى جانبها، ثم مرّ بيده على كفلها الناعم وقال كأنه يخاطب نفسه:
«لها كفل كصفة المسيل».

ثم نظر إلى الصخر الأملس الذى اجتمع به الماء الصافى العذب وأعاد النظر إلى كفل الفرس، ومرّ عليه بيده مرة أخرى، كأنه يريد أن يستيقن من صدق الشبه بين كفل فرسه وبين الصخرة التى صقلها مسيل المياه.

وانتحي بعد ذلك ناحية من الوادي وجلس يتأمل فرسه الرشيقة وهي تضرب الأرض بحافرها قلقلة إلى السير والركض، وأعجبه منظرها فجعل يجول ببصره في أعضائها، وينتقل من عضو إلى آخر بعد أن يمتلئ منه ويتملى بالإعجاب.

ثم نظر إلى حوافرها وسيقانها وقال مترنماً:

له أَيْطَلَا ظبِي وَسَاقَا نَعَامَةٍ وَصَهْوَةٌ عَيْرٌ قَائِمٌ فَوْقَ مَرْقَبٍ
وَيَخْطُو عَلَى صُمِّ صِلَابٍ كَأَنَّهَا حَجَارَةٌ غَيْلٌ وَارِسَاتٌ بِطَحْلَبٍ

ثم رفع نظره إلى ذيلها المسبل الطويل الشعر وقال: «لها ذنب مثل ذيل العروس».

وانتقل بعد ذلك إلى رأسها والهواء يلعب بعرفها وشعر ناصيتها، فقال وهو يتأمله:

لَهَا عُذْرٌ كَقُرُونِ النَّسَاءِ ءَ يَرْكَبُنَ فِي يَوْمِ رِيحٍ وَصَرٍ
لَهَا جِبْهَةٌ كَسِرَاةِ الْمَجْنُونِ حَذَفَهُ الصَّانِعُ الْمُقْتَدِرُ
لَهَا مَنْخَرٌ كَوَجَارِ السَّبَا عَ فَمَنْهُ تَرِيحٌ إِذَا تَنْبَهَرُ

ثم وقف وذهب نحوها فاتحاً ذراعيه كأنه يستعد للقاء صديق، حتى إذا قرب منها احتضنها وقبل جبينها، وقال يخاطبها: هلمى إلى الصيد يا خيفانة وقد أطلق عليها هذا الاسم تودداً يشبهها بالجرادة الصغيرة، فقد كانت دقيقة الأعضاء ضامرة اللحم، خفيفة في العدو كأنها ظبية من الظباء. ثم قال وقد قفز على ظهرها:

وَتَعْدُو كَعْدُو نُجَاةِ الظُّبَاءِ أَخْطَأَهَا الْحَاذِفُ الْمُقْتَدِرُ

وما كاد يتم كلمته حتى انطلقت الخيافانة تعدو في الوادي كأنها تريد أن تظهر لسيدها صدق وصفه. وكانت تثب فوق الشعاب كأنها لا تعرف سيرا غير وثب الظباء، وعدا الكلب وراءها يشم الآثار حيناً، ثم يعدو فيسبق وينظر إلى سيده الراكب يريد أن يفوز برضاه عن صحبته، فتبسم إليه الفتى وقد أدرك معنى نظرتة وقال كمن يسترضيه:

أَلصَّ الضُّرُوسُ حَنَى الضُّلُوعِ تَبَوَّعُ طُلُوبٌ نَشِيطٌ أَشْرَ

فمضى الكلب يثب بحذائه ويعدو كأنه ارتاح إلى تقدير سيده وحسن رأيه فيه.

واستمر الشاب بعد ذلك في وصف فرسه، كلما وثبت وثبة خفيفة خطر له فيها معنى جديد، وكلما أحدثت في ركضها حركة بارعة اهتز إعجاباً، ووقع نظره منها على صورة رائعة. وانتهى به السير بعد ساعة إلى فم الوادي، فانفرج جانباه إلى مسيل واسع من رمال ناعمة قد غطاها العشب بين طويل وقصير، ووشته الزهور بين أصفر فاقع من الخزامى، وأحمر قان من العنم ونُور العُضْرُسِ، وأبيض ناصع من العرار، وانتشرت به الأعواد القصيرة من مَرَحٍ وتُمامٍ وأرطى. فوقف لحظة وجعل يجول ببصره في الفضاء المنبسط، ويتدسس به في أصول الشجر والغصون، ويستقرى به جنبات الرمال، وهو فيما بين ذلك يتغنّى بتهازيح قصيرة، ويملاً صدره

من الهواء الصافى. فلاح له بعد حين سرب من بقر الوحش لمعت
ظهورها البيضاء فى ضوء الشمس، يتخلل بياضها سواد قوائمها،
وهى تعدو فى عرض السهل، فصاح صيحة فرح وأسرع بفرسه
فأطلقها نحو السرب، وكان الكلب أسبق إلى تنسم ريح البقر، فسبق
يعدو تجاهها، يثب فوق الرمال ولا يكاد يمس الأرض من سرعته.
وأحس الوحش المطاردة فأسرع يلتمس النجاة، وكانت الأرض
مبسوطة ليس فيها ثنايا ولا شعاب، فطالت المطاردة، وكاد الصيد
يفلت إلى ما وراء الكثبان المحيطة بالفضاء. ولكن الكلب أدرك
زوجًا من الوحش، ورآه الفارس عن بعد وهو يحاورها ويؤايبها
ويعقرها فى أفخاذها ثم يهرُّ فى وجهها، فوقف له ذكر البقر
يحمى أنثاه ويدفع عنها، وكَرَّ على الكلب وقد أيقن أنه لا بد له
من النضال، وبدأ بينهما صراع عنيف. وأدرك الفارس كلبه وهو
لا يزال فى معركته عنيدًا بأسلا، والدماء تسيل من جراح واسعة
فى جنبه وبطنه. فسَدَّ سهمه إلى الوحش ورماه فى جنبه الأيسر،
فترنح وارتقى إلى جانب شجرة ملتفة الأغصان، ثم نهض بعد
قليل وقد أحس بالحديد يمزق قلبه، فجمع قوته فضرب الكلب
بقرنيه ضربة خرقت صدره، وارتقى هو والكلب جميعًا على الأرض
والدماء تنزف منهما.

نزل الفتى مسرعاً وقد راعه ما رأى، فاخترط سيفه وذفّف على
الوعل الجريح. ثم أهوى بيده إلى الكلب يريد أن يسعفه، فرآه
فاتراً يعانى خَلجات الموت، فألقى إلى جواره ووضع يده على رأسه
بحزن، وقد علم أنه لن يقدر له على شيء، فرفع الكلب إليه طرفاً
كليلاً ونظر إليه نظرة وانية كأنه يشكره على حنانه، ثم خمد
بعد قليل.

فقام الفتى وهو يتنفس نفساً عميقاً، والحزن يجيش فى صدره
لموت كلبه الوفى. ولم يمض من ذلك المكان حتى حفر له حفرة دفنه
فيها ووضع على الحفرة أحجاراً كباراً لتكون آية له فى ذلك السهل
الفسيح، لعله يوماً يمر به فيعرج على حفرتة تأدية لحقه عليه.
وذهب إلى الوعل الضخم فرفعه بعد مشقة، ووضعه فوق ظهر
الفرس، وعاد به أدراجه حتى بلغ المكان الذى مر به فى الصباح،
عند الحوض الممتلى بالماء الصافى بين الجنادل المساء.

كانت الشمس عند ذلك قد مالت عن الزوال واتجهت الظلال إلى
الشرق، وتوافدت قطع بيضاء من السحاب كأنها قطعان سائمة،
تجتمع حيناً، وتنتشر حيناً، وهى تعطى السماء جزءاً بعد جزء
مقتربة من كبتها اقتراباً بطيئاً.

وسار الفتى بصيده غير متعجل، مترفقاً بفرسه الضامرة بعد
تلك المطاردة الطويلة فى صيد اليوم. فلما عاد فى سيره قريباً من
دائرة جلجل، كانت الشمس تبدو من خلال السحب وهى مائلة

نحو الأفق الغربي، فينفذ شعاعها حيناً ويحتجب حيناً، ويوشى أطرافها بألوان ساحرة عجيبة.

ولما اقترب من المكان استقبلته صيحة عالية من فوق ربوة رملية صفراء، فرفع بصره نحوها مبتسماً، ولوح بيده وهو يقصد نحو أصحابه الذين جاءوا إلى هناك على موعد ينتظرونه للسمر تلك الليلة، فقد كانت ليلة قمراء من ليالى التمام.

ونزل عند أصل الربوة ثم أنزل الصيد الضخم فرماه على الرمل ووقف يتأمله قليلاً، وهبط إليه أصحابه سراعاً وهم يتصايحون حتى صاروا حوله، فأحاطوا به مرحبين فى صخب وحماسة، وكانت تحياتهم مختلفة: «مرحباً أبا وهب!» «مرحباً جندح!» «مرحباً بالأمير!» «صيد كريم يا امرأ القيس!» «هدية ملك لندمانه!» «عمت مساء يا بن حجر!»، وكان الفتى يجيب تحيات أصحابه بابتسامة أو مصافحة، وفى مظهره ما ينبئ بأنه سيد كريم يتلقى ما ينبغى له من تحيات أتباعه وتبجيل أصحابه. فقد كان امرؤ القيس بن حُجر الكندى سليل بيت آكل المرار الكندى اليمنى ذلك البيت الذى كان يحكم بنى أسد ببلاد نجد منذ أجيال، أبوه حُجر بن الحارث ملك بنى أسد، يستمد سلطانه من أبيه صاحب التاج فى الحيرة، الحارث بن عمرو الملك العظيم زى السطوة والسلطان الذى لم يكن فى بلاد العرب عند ذلك ملك يبلغ شأوه.

اصطفاه عاهل فارس قَبانَ العظيم ليكون سيد العرب وجعله ساعد دولته الأيمن، وجعل مقره في الحيرة بعد أن طرد ملكها الأول وسليل حملة تيجانها المنذر بن ماء السماء اللخمي.

أسرع الفتیان بعد أن هدأت هزتهم ليوقدوا النار ويسلخوا الصيد ويجهزوا الطعام، ويضعوا زقاق الخمر على جانب الربوة ويعدوا مجلساً لليلة رائعة يكون قطبها الفتى الجميل الكريم والشاعر المبدع والأمير البارع وابن الملوك الغطاريف والسمير العذب الحديث، امرؤ القيس بن حجر. وذهب الأمير في أثناء ذلك إلى أعلى الربوة يستروح من عناء يومه، فجلس ينظر حوله ويتملى بجمال منظر الشمس الغاربة والأرض الحالية بالزهر والعشب، وبالفضاء الفسيح الذي يخيم عليه السلام. فحانت منه التفاتة إلى الوادى القريب فراه منظر عند الحوض الواسع الممتلىء بالمياه، فقد كان هناك سرب من العذارى جنن من مضارب الخيام ليحملن الماء قبل المساء، فاطمأن إلى خلو المكان، واستخفهن جمال الأصيل، وخلب ألبابهن بريق المياه، فنزعن أثوابهن ونزلن في الحوض يمرحن فيه ويلعبن، بعد أن ملأن القرب والجرار. فتبسم امرؤ القيس للمنظر المعجب، واستهواه فتون الشباب، فأسرع هابطاً من الربوة، وسار وحده نحو الوادى، يختلس الخطى حتى صار عند ملابس الفتيات، وهن لا يفطن إلى وجوده، فجمعها في يديه وأسرع في خفة الوعل، فكمن في جانب الوادى يتأمل حسن أجسامهن ويضاحك نفسه بما ينتظر من معاينتهن.

فلما أدرك الفتيات بغيتهن من المرح واللعب، خرجن يلتمسن ثيابهن حيث وضعنها، وما كان أعظم فزعهن عندما لم يجدنها. فعلا صياحهن من الذعر، وأسرعن يتدافعن ويتواثبن، يردن أن يجدن مكانًا يختفين فيه، فقد علمن أن هناك لا بد رقيبًا وقعت عينه عليهن. وخرج عند ذلك امرؤ القيس من مكمته، وصاح وهو ضاحك. «لا بأس عليك، هذه ثيابكن إذا أردتن أخذها».

فعلت منهن عاصفه مضطربة من الصيحات، بعضهن يلوم، وبعضهن يشتم، وبعضهن يهدد، وقد تزاحمن يتماسكن ويتوارى بعضهن في بعض، ويحاولن التستر وراء الصخور وفي ثنايا الشعاب. فقال امرؤ القيس في لهجة هادئة مرحة:

«لا عليك من سبّي ولومي، فلقد آليت لا أعطى إحداكن ثوبها أو تأتى إلى لتأخذها، أو فلتذهب عاريات إلى بيوتكن ليعلم آباؤكن كيف تملأن جراركن».

وكان لقوله الهادئ أثر عظيم في الفتيات. فأقصرن عن الصياح والتهديد وأقبل بعضهن على بعض يتشاورن فيما هن فاعلات.

وبرز امرؤ القيس من ظل الصخور حتى بدا للفتيات، فلما وقع عليه نظرهن علت منهن صيحة يشوبها فزع، وتختلط بتهانف الضحك. فقد عرفن أنهن لن يجدن في ذلك الفتى حيلة إلا بالنزول على إرادته.

واجترأت إحداهن فقالت لصاحباتها :

«والله لا حيلة لنا في أمر هذا الفتى ابن حجر ولخير لنا أن نتقيه بالطاعة».

ثم سارت نحوه وهى تحاول إخفاء جسمها بشعرها المسدل ، ويديها المضمومتين ، وخطوها المتعثر . وتبعتها صاحباتها يسعين فى أثرها ، حتى صرن عنده ؛ فمد يديه بالثياب فجعلت كل منهن تخطف ثيابها وتسرع عنه فتلبسها ، وهى تشتمه وتستنزل عليه اللعنة ، وهو يضحك ملء شذقيه ويجيبها بتحية ، مثنياً على ما بدأ من جمالها الفاتن .

وجاءت آخر الفتيات جاهمة صامئة وعيناها مطرقتان والدمع يقطر منهما ، فما اقتربت من امرئ القيس ووقع عليها بصره حتى صرخ قائلاً : «فاطمة!» .

وكانت فتاة بيضاء مشربة بحمرة تتدلى غدائر شعرها الأسود الفاحم على كتفيها إلى خصر نحيل من جسم كأنه تمثال راهب صنع من مرمر شفاف !

وأسرع الفتى فرمى إليها ثوبها وخلع شملته فطرحها على كتفيها ووقف ماداً إليها يديه قائلاً بصوت متردد ممثلىء بالخشوع والاعتذار : «عفوًا يا بنة العم!» .

فلبست الفتاة ثيابها على عجل وهى مدبرة عنه . وسارت بعد ذلك مسرعة بغير أن تتكلم كلمة ، وهو يسير وراءها ماداً ذراعية متوسلاً معتذراً متذللاً .

وبلغت الفتاة فى سيرها ثنية فى الوادى تؤدى إلى منزل أبيها، فعطفت إليها ونفذت منها إلى كتيب رملى، فتوقلت فيه والفتى لا يزال يتبعها ويعتذر ويستغفر، وهو من اضطرابه يتعثر فيقع ثوبه عن كاهله، فيجره مذهباً وهو لا يدري كيف يثبتته على جسمه. فلما بلغت الفتاة ظهر الكتيب وقفت ونظرت إليه غاضبة وقالت:

«حسبك يا هناة! لا تتبعنى. لقد ألحقت شراً بشر» فنظر إليها مستعظماً وقال:

«قسماً بيغوث ما عرفت أنك فيهن».

فقال ولا تزال غاضبة لا تكاد تنظر إلى وجهه:

«لا أحب أن يراك أحد تسير معى».

فقال وقد طعنته كلماتها:

«ألست ابن عمك؟».

فقالت بقسوة وجفاء:

«لست علىّ بأمين، أنت فتى داعر».

ثم مضت عنه وتركته مبهوئاً حائرًا لا يدري أيمضى وراءها أم يعود، ولا يعرف أيحيبها أم يثنى عنها، وضلت عنه الكلمات فلم يستطع قولاً، حتى بعدت الفتاة عن عينيه وهبطت على جانب الكتيب نحو دارها، ونظر فى آثارها حزينا، وقال كأنه يخاطب نفسه:

«أواه! أحقًا تقطعينني يا فاطمة؟»

ثم أطرقت وعاد أدراجه نحو رفاقه وقلبه مفعم بالهم، والهواجس تنتابه وتتجاذبه، فحيناً يغضب لجفائها وقسوتها وردّها له هذا الرد المهين، وحيناً يثوب إليه الندم على تلك الدفعة التي دفعه فيها نزقه وخفة قلبه إلى اقتناص اللهو، فيلوم نفسه لومًا عنيفًا، ويتأسف على ما كان منه حتى انتهى به السير إلى صحبه، فوجدهم مشتتين في أنحاء الوادي يبحثون عنه، خوف أن يكون قد أصابه شر من عدو رصد له، أو من وحش اعترض سبيله. فلما وقعت أنظارهم عليه تهللوا وصاحوا فرحين، وأقبلوا عليه يسألونه عن سر غيبته، وهو ساهم لا يرد إلا ردًا ضعيفًا. فلما ألحوا عليه في المسألة قال لهم في لهجة تبرم:

«دعوني، فقد كنت أسير في الوادي أروح عن نفسي عارضًا من هم يعتادني».

وكانوا يعرفون فيه أنه فتى عجيب، يصيبه أحيانًا مثل ذلك العارض فيضيق صدره بالهم، ويسوء خلقه، ولا يجرؤ أحد عند ذلك على إحراجه؛ فسكتوا عنه، ومضوا معه صامتين إلى مجلسهم، معللين الأنفس بأن الشراب لا بد يذهب بما علق في قلبه من ذلك العارض. وأخذوا في الشراب والسمر، وحلت عقدة صمته بعد حين، فأخذ يحدثهم ويحدثونه. وينشدهم من أشعاره وينشدونه، ولكنه كان لا ينشدهم إلا أشعارًا باكية حزينة، تروعهم بجمالها، وتلقى على مجلسهم سحابة من الأشجان.